من الذاكرة الثقافية الفلسطينية :

محمد عزة دروزة : مئة عام فلسطينية

فيصل دراج

*التاريخ يعني بالأساس رصد تكوّن القيم»
عبد الله العروي

في عام ١٩١١، وفي ١١ تشرين الثاني، كتبت الصحيفة البيروتية *المفيد» السطور التالية : *شاب من شباب نابلس يحق لكل عربي متنوّر أن يفخر بمثله. كيف وهو ذاك الشاب المفكّر عزة دروزة الذي يسعى سعياً حثيثاً لإحياء اللغة، وبثّ الروح الوطنية، وينبّه أفكار الشبيبة للعلم، ويحرّض كبار القوم لافتتاح المعاهد العلمية ....» [١]. لم يكن عمر الشاب المفكّر، آنذاك، قد تجاوز العشرين، إلا بقليل. ليس من باب الغرابة، تماماً، أن نقع على شاب روحه مشوبة بالنار، فنسيم الشباب من الجنة كما يقال، وإنما الغرابة كلها أن يبقى المفكر الفلسطيني شاباً كل عمره، وأن لا تعرف نار الشباب الانطفاء والترمدّ. ولذلك، وبعد عامين على وفاته، كتبت مجلة عربية في آذار عام ١٩٨٦ السطور التالية : *حياة محمد عزة دروزة، في عمقها واتساعها وإشعاعها، تكاد تكون ظاهرة فريدة. عاش هذا الرجل الفذ زهاء قرن من الزمان وهو، لا ينقطع عن الجهد والسعي والعطاء، عاملاً، يفكر، ويكتب ويناضل، تسعين عاماً من عمره، فكان بذلك شاهد عصره على امتداد القرن العشرين....» [٢]. في حياة دروزة نقاط كثيرة تثير الإعجاب، منها ثلاث أساسية : الاتساق المدهش بين المنظر والعمل ولمدة سبعين عاماً وأكثر، العمل الدؤوب المديد الذي يترجم النظر والعمل معاً، تكريس الحياة المتسقة لأهداف ثابتة غير قابلة للتبديل والمقايضة. هذا كلّه يجعل من دروزة رمزاً أخلاقياً مضيئاً، ومرجعاً معرفياً لمن يبحث عن معارف وطنية أخلاقية الغايات. وقد تعود أهمية بعض المفكّرين

إلى الكمّ الكتابي الذي أنجزه، وهذا ما لا يتفق مع حال دروزة، وهو الذي كتب عشرات الآلاف من الصفحات، ذلك أن في حياته الفريدة ما يتجاوز كتاباته أهمية. كما لو كان نصه المكتوب المديد حاشية لنصّ آخر، أكثر جمالاً وكثافة، هو فعله المعيش من أجل القضية الوطنية الفلسطينية.

١ ـ الإنسان المتعدّد الذي عاش عصره :

في كتابه : *مذكرات وتسجيلات»، وفي الجزء الأول منه، يأتي محمد عزة دروزة، وأكثر من مرة، على ذكر شيخ مرموق من عائلة الشقيري. والشيخ، من ناحية، *عالم ديني وخطيب مفوّه بالعربية والتركية وذكي ومتحرك»[٣]. وهو، من ناحية ثانية، مفتون بالسلطة ومنبهرٌ بها، كما لو كانت السلطة هي المهد الوثير واللحد الأخير، إن ابتعد عنها *العالم» لحظة عاجله الموت. وحتى لا يبدو التعليق معلّقاً في الهواء، فإن دروزة يضيء ما كتب ويمدّه بالمعنى، فيكتب : *إن أكثر طبقة الوجهاء والأعيان الذين اعتادوا أن يعيشوا في جو موظفي الدولة...، لا يعدّون من سواد الشعب بل من الطبقات المتفتّحة أو البارزة ذات، ... ص: ٢٧٧». يقيم دروزة، وبأسلوب أليف، مسافة متسامحة بين سواد الشعب وطبقة الأعيان، التي تقف فوق الشعب، في لحظة، وتقف عليه في لحظة أخرى.

يضع دروزة في سطوره موقفاً واضحاً، يترجمه، عملاً، بالوقوف مع الشعب لا عليه. وفي مسار المؤرخ، الذي ولد في نابلس عام ١٨٨٨ وتوفي في دمشق عام ١٩٨٤، ما يفسّر موقفاً مشغولاً بـ *الحرية» و *الاستقلال»، أكثر من أي شيء آخر. يقول وهو يتحدّث عن طلاب أرسلهم أهلهم إلى مدارس بيروت والأستانة : *وكانت حالتنا المادية لا تسمح على الأرجح بإرسالي لأن الطالب كان يكلّف أهله في السنة ما لا يقل عن خمسين ليرة ذهبية. وقد خطر ببال أبي أن يلحقني بعمل حكومي....». والتحق التلميذ، *الذي نجح في المدرسة نجاحاً باهراً»، بدائرة البرق والبريد، أي بعمل لا يوجد بينه وبين طبقة الأعيان والوجهاء علاقة وثيقة. وبالتأكيد، فإن دروزة لم يذهب إلى الطريق الذي ذهب إليه، بسبب موقع طبقي منعه من الذهاب إلى الأستانة، ولا بفضل عمل إداري، أتاح له التجوال في أرجاء فلسطين كلها، بل بفضل تجارب حياتية، كان فيها مع سواد الشعب ومنه في آن.

توزّعت حياة دروزة على اتجاهات ثلاثة : فهو الموظف الإداري، أو التقني بشكل أدقّ، الذي يحسن عملاً ويرتقي في مراتبه، وهو المناضل الوطني المحترف، الذي يعرف العمل التنظيمي والمنفى ورموز العمل الوطني، وهو المثقف الصارم، الذي يضع خبراته ومعارفه فوق آلاف الصفحات. ولعل العمل الإداري ـ التقني، هو الذي أتاح لدروزة الانخراط في تجربة وطنية واسعة، دون التعرّض، وليس دائماً، لخطر الفصل والمعاقبة.

وساعد على ذلك منظوره الثقافي للعمل الوطني، الذي أملى عليه أن يحترف النضال لا أن يمتهن السياسة. فإذا كان بعض من يلج عالم السياسة يرى فيها مهنة تَفْضُل المهن الأخرى،

فإن ممارسة المثقف السياسية تلغي المهنة وتستبقي ما هو أعدل وأبقى. وقد آثر دروزة أن يحتفظ بعمل إداري يكفيه متطلبّات الحياة الضرورية، وأن يتمسك بمنظور ثقافي يقترب من السياسة ـ المهنة ويُقصيها في آن. وهذا المنظور أتاح له أن يمارس الكتابة مدة سبعة عقود وأكثر.

بعد أن تخرّج من مدارس نابلس ـ الابتدائية والرشدية والإعدادية ـ في عام ١٩٠٦، ذهب دروزة إلي العمل الحكومي الذي اقترحه عليه والده، ومارسه إلى نهاية السيطرة العثمانية. يكتب دروزة عن هذه الفترة، وفي دراسة عنوانها: *حياة محمد عزة دروزة بقلمه»، السطور التالية: *من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٨ عمل في دائرة البرق والبريد العثمانية متنقلاً في وظائف عديدة، مأموراً فمديراً فمفتشاً فسكرتيراً لديوان المديرية العامة في بيروت، وبعد انتهاء حكم الدولة العثمانية قضى فترة قصيرة كاتباً في ديوان الأمير عبد الله في عمّان ـ سنة ١٩٢٠ ـ ثم رئيساً لمدرسة النجاح الوطنية الابتدائية الثانوية ـ ١٩٢٢ ـ ١٩٢٧ ـ فمأموراً للأوقاف الإسلامية في نابلس ـ ١٩٢٧ ـ ١٩٣٢ ـ فمديراً عاماً للأوقاف الإسلامية في فلسطين ـ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٧، وفي سنة ١٩٣٧ وضع الانجليز يدهم على الأوقاف الإسلامية والمجلس الإسلامي الأعلى الذي كان تحت إشرافه، بسبب الثورة العربية التي اندلعت ضدهم في سنة ١٩٣٦ واستمرت إلى أواخر سنة ١٩٣٩، فأقالوه ولم يعد بعد ذلك موظفاً» [٤].

توحي السطور السابقة بصورة موظف طموح، لا يفقد وظيفة إلا ويعثر على أخرى أكثر أهمية، كما لو كان إنساناً يرتاح إلى الاستقرار ويبتعد عمّا يعكّره. غير أن وظائف دروزة كانت مستوى من مستويات أخرى، نسجت حياة مليئة بالفاعلية والمبادرة. فالرجل، وفي كتابه *مذكرات وتسجيلات»، يتحدّث عن رواية عروبية تحريضية، عنوانها: *وفود النعمان على كسرى أنو شروان»، طبعها في بيروت سنة ١٩١١. ويذكر، وهو يتحدّث عن ساطع الحصري، عن رواية ثانية له، كتبها عام ١٩١٣ وعنوانها: *السمسار وبائع الأرض». وإذا كانت الرواية الأولى تستلهم كتاب الكواكبي *أم القرى»، حالمة بوحدة العرب وداعية إليها، فقد حذّرت الرواية الثانية من *السماسرة العرب»، الذين يعملون لصالح أطراف صهيونية. ويعود، وبعد أن أصبح مديراً لمدرسة النجاح الوطنية، فيشير إلى روايتين مسرحيتين، هما *عبد الرحمن الداخل» وكتبها عام ١٩٢٤، و *آخر ملوك العرب في الأندلس» في عام ١٩٢٥. تنطوي هذه الأعمال على أكثر من دلالة: تكشف عن معرفة بالتاريخ العربي، تدافع عن الهوية العربية في زمن السيطرة الخارجية، وتعبّر، أولاً، عن نزوع قومي وتحرّري صميمي، فقد استهل دروزة كتابه بالجمع بين الكواكبي والوحدة العربية.

يكتب دروزة في الجزء الثاني من *مذكرات وتسجيلات» السطور التالية: *وتفرّق الجمع بعد رحيل الملك فيصل فمنهم من اتجه نحو شرق الأردن ومنهم من اتجه نحو فلسطين، وكنت أنا ومعظم الفلسطينيين ممن اتجهوا نحو فلسطين... ص: ٢١٥». ويكتب، في مكان آخر، عن وداعه الحزين لوزير الدفاع السوري يوسف العظمة، الذي خرج يقاتل الفرنسيين

عارياً إلا من كرامة مديدة، واستشهد في ٢٤ تموز عام ١٩٢٠. وواقع الأمر أن دروزة كان في قلب العمل الوطني في العهد الفيصلي، الذي دام من أوائل تشرين الأول ١٩١٨ إلى آخر تموز ١٩٢٠، معتقداً، وقد أقام في دمشق، أن في العهد الجديد نوافذ إلى نور منتظر، قبل أن يعود إلى فلسطين وقد تحطّمت الآمال تحطيماً موجعاً.

يشير لقاء دروزة مع يوسف العظمة، كما لقاءاته مع شكري القوتلي وساطع الحصري وخليل السكاكيني وجميل مردم بك وخير الدين الزركلي وغيرهم الكثير، إلى المستوى الآخر في حياته، الأكثر اشتعالاً وتوقّداً ونضارة. فهذا الفلسطيني، الذي لجأ إلى تركيا بعد التواطؤ الإنجليزي ـ الفرنسي في بداية الأربعينات، كان يطرق كل الأبواب التي تحرّر العالم العربي من هزائم قديمة وأخرى مستجدة، مؤمناً بواجب وطني نبيل، على النخبة المثقفة أن تنصره وأن تنتصر معه في آن. ولعل هذا الإيمان، المشوب باللهب، هو الذي كان يأخذ بيد دروزة من عمل تنظيمي إلى آخر، مقترباً، وبصدق، من *الثوري المحترف»، بلغة من زمن آخر. يكتب في الجزء الأول من *مذكرات وتسجيلات» : *وعلى ذكر سكرتيرتي للجمعية (جمعية التعليم) أسجل باعتزاز أني بعد هذا كنت أرشح دائماً للسكرتيريات في الهيئات السياسية والوطنية التي كنت أنشط في نطاقها في مختلف الظروف وحتى في عملي الرسمي الحكومي. وكان من أول ذلك بعد سكرتيرية الجمعية العلمية أن صرت سكرتيراً لفرع حزب الحرية والإئتلاف، الذي أنشأناه في نابلس في زمن الدولة العثمانية، ثم صرت سكرتيراً لمجلس رئاسة مديرية البرق والبريد في بيروت عام ١٩١٦، وكان يشرف على أعمال ووظائف موظفي نحو سبعين مركز برق وبريد في ولايتي سورية وبيروت ومتصرفية القدس، ثم رُفِّعت وصرّت سكرتيراً للجمعية الإسلامية المسيحية التي أنشأناها في بداية الاحتلال الإنكليزي ١٩١٨، ورشّحت وصرّت سكرتيراً للمؤتمر الفلسطيني الأول الذي انعقد في القدس عام ١٩١٩، ورشّحت وصرت سكرتيراً للمؤتمر السوري العام الذي انعقد في دمشق ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، ورشّحت وصرت سكرتيراً للجنة الدستور التي عيّنها هذا المؤتمر، ورشحت وصرّت سكرتيراً للهيئة المركزية لجمعية العربية الفتاة في دمشق ولحزب الاستقلال وللجمعية الفلسطينية في دمشق في السنتين المذكورتين، وعدت إلى نابلس فعدت لسكرتيرية الجمعية الوطنية الإسلامية المسيحية ورشحت وصرت سكرتيراً للمؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس ١٩٣١ وسكرتيراً للجنة المركزية لإعانات المنكوبين سنة ١٩٣٦ وسكرتيراً للجنة العربية العليا سنة ١٩٣٦ وسكرتيراً عاماً لمؤتمر بلودان العربي سنة ١٩٣٧. وهذه من المظاهر الفريدة... ص: ١٨٦ ـ ١٨٧». والفريد الذي يقول به دروزة واضح كل الوضوح، فـ *السكرتير المتجدّد» لم يكن بإمكانه أن يكون ما كانه لولا صفات ثلاث لازمت الرجل حتى عام *النكبة»، حيث انسحب من مجال العمل إلى مجال النظر. والصفات هي: ثقة الناس به واحترامهم له وإجماعهم على كفاءته، واعتراف بقدرة متراكمة على التنظيم والانضباط والنزاهة الفاعلة، إضافة إلى اندفاع رسولي يؤمن بالعمل الجماعي ويبجّل العمل الجماعي

من أجل الوطن والقضايا القومية. ولعل الصفة الأخيرة هي التي وضعت على قلم دروزة كلمة مفضّلة هي : *اللولب المحرك»، كما لو كان الرجل لم يصبح *سكرتيراً»، وبشكل متكرّر أقرب إلى البداهة، إلا لأنه كان، دائماً، محرّضاً على العمل وداعية له ومرجعاً في تحققّه وبنائه.

قضى دروزة، كما يقول في مذكراته، أربعين عاماً من حياته وأكثر في العمل الوطني، أي من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٤٨. يقول في المذكرات : *ولما بلغت الستين من عمري لم أعدّ عنصراً فاعلاً في هذه المجالات كما كنت قبل سنة ١٩٤٨ .... لكن هذا لم يمنع والحمد لله ولا فخر من تفجّر طاقتي في الشطر الثاني من حياتي في نشاط علمي وثقافي متواصل، وبسبب ذلك كله عنونت مذكراتي بعنوان : خمس وتسعون عاماً في الحياة. جـ: ١. ص: ١١». لم يتوقف الرجل عن *الفعل» وينتقل إلى *الكتابة»، بسبب دخوله إلى عالم الشيخوخة، بل بسبب المآل الفلسطيني، مدركاً، ربما، أن تسجيل التجربة شرط لعدم تكرارها، ذلك أن معرفة الماضي علاقة داخلية في كل مستقبل لا يريد أن يعيد إنتاج الماضي، كما كان.

وواقع الأمر، أن هذا المثقف الصارم، الذي كتب مذكراته في ستة آلاف صفحة (لم تنشر كلها)، لم ينتظر النكبة والشيخوخة، كي يبدأ بالكتابة. ففي سنتي ١٩١١ و ١٩١٢، وحين كان يقلّد المنفلوطي، أخذ يراسل نجيب نصار صاحب الكرمل، ويرسل مقالات إلى جريدة الحقيقة في بيروت. وترجم، وفي فترة مبكرة من حياته (١٩١٥)، رواية لامارتين الشهيرة *رافائيل» عن الفرنسية، إضافة إلى جزء من كتاب *دروس في التربية» للأستاذ كمبايره (المذكرات. جـ: ١. ص: ١٤٢». وترجم لاحقاً، وعن التركية، كتاب أرسطو *دولة الأثينيين». ومن يعود إلى ثُبّت مؤلفات دروزة، يجد كتباً كثيراً وضعت قبل عام ١٩٤٨، معظمها لها صفة تربوية عن *تاريخ العرب والإسلام»، مثل : مختصر تاريخ العرب والإسلام ـ ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ ـ دروس التاريخ القديم ـ ١٩٣٦ ـ دروس التاريخ العربي ـ ١٩٣٩ ـ. إضافة إلى *تركيا الحديثة» و *عصر النبي» وكتب أخرى.

لم يكن دروزة، الذي عاش قرناً وسجّلها في عشرين جزءاً وفي ستة آلاف صفحة، يرى، ربما، في كتاباته السابقة إلاّ تمارين تحريضية، أملتها اعتبارات تربوية، في شرط مضطرب ومهدّد. وما أن انتقل الوطن من طور التهديد إلى طور النكبة المنجزة، حتى انغمس في بحث طويل، تمحور حول قضايا رئيسية ثلاث: الهوية العربية، القضية الفلسطينية، الحركة الصهيونية. فوضع في الموضوع الأول ستة كتب، وفي الثاني خمسة كتب، وفي الثالث خمسة كتب أيضاً. ومعظم هذه الكتب تقع في أكثر من جزء، وآية ذلك كتابه: *حول الحركة العربية الحديثة»، وهو في ستة أجزاء وفي ألف وسبع مائة صفحة، وكتاب : *تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة»، وهو في ثمانية أجزاء وفي أكثر من ألفي صفحة. وبسبب تبادلية العلاقة بين العروبة والإسلام، في منظور دروزة، أعطى الإسلام مكاناً واسعاً في بحثه، وأنجز عدة كتب، منها : *الدستور القرآني في شؤون

الحياة» (أكثر من ألف صفحة) و *التفسير الحديث»، في اثني عشر جزءاً وثلاثة آلاف صفحة...

يظهر كَلَف دروزة بالكتابة، وشغفه الفريد في تحويل الوقائع إلى كلمات والأفكار إلى سطور والقضايا إلى كتب، في المقطع التالي المأخوذ من مقالة بعنوان: *حياة محمد عزة دروزة بقلمه» : *وكان يدوّن مشاهداته في رحلته وملاحظاته عمّا يقرأه من أخبار عالمية، كتب نحو عشرين دفتراً صغيراً في نحو ٣٥٠٠ صفحة. بدأ في ١٩٣٢ بتدوين مذكراته وذكرياته ومشاهداته ومسموعاته عن أصول بلده فلسطين وأصول البلاد العربية الإجتماعية والثقافية والأدبية والسياسية من منتصف القرن التاسع عشر، .....، ثم أخذ يكتب يوميات عن سير الثورة الفلسطينية في سنتي ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨، وقد بلغ عدد الدفاتر التي كتبها نحو أربعين في نحو ٦٥٠٠ صفحة، وهكذا بلغ عدد دفاتر ما سمّاه بالمذكرات ٦٠ دفتراً في عشرة آلاف صفحة ...» [٥].

في مسار طويل ومنتج أعطى دروزة خمسة وعشرين كتاباً، تقع في خمسة وخمسين جزءاً، بلغت عدد صفحات طبعاتها الأولى ١٥٧٣١ صفحة، إضافة إلى مذكرات، لم تطبع كلّها. نال جائزة الجامعة العربية في عام ١٩٥٢، عن كتابه *مشاكل العالم العربي»، وهو جزء، أعاد النظر فيه، من أجزاء كتابه *حول الحركة العربية». ومنحه المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية، في *الجمهورية العربية المتحدة» عام ١٩٥٨، جائزة عن كتابه *في الوحدة العربية». كما انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٦١، وعضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠.

وقد يكون في توليد الكتب بهاء كثير أو قليل، وفي البحث لمعان أو صفحات زائدة. غير أن بهاء محمد عزة دروزة كلّه يقوم في فعل وطني ثقافي يتصادى، دون هوادة، في فلسطين وسوريا ولبنان، بلغة من هذا الزمان، كأن دروزة، وقد أشعلته إرادة لا تترمّد، تحوّل إلى جمع من الرجال في رجل فريد. وهذا ما حوّله إلى ذاكرة وطنية خارقة تعرف، ولمدة نصف قرن، كل من سطّر كلمة مضيئة في الكتاب الوطني، وكل من سجّل سطوراً كريهة الرائحة أيضاً. ولعل الرجوع إلى *مذكرات وتسجيلات»، في جزأيه، يكشف عن رجل عاش عصراً كاملاً برجاله ورموزه ومعاركه وأحلامه وإخفاقاته الكثيرة. فدروزة متوثّب وكامل الحضور في العمل ضد السيطرة العثمانية ودعم الثورة العربية ومجابهة وعد بلفور ومساندة العهد الفيصلي وإسناد ثورة فلسطين الكبرى وإعانة منكوبي هذه الثورة التراجيدية، التي فتحت أبواب الكارثة القادمة. رجل شجاع أبحر مع مياه زمانه، مع التيار، إن كان موافقاً، وضد التيار، إن حكمت الضرورة. وبقي، في الحالين، في قلب التيار، دون مساومة، مجسداً، دون ادّعاء، صورة المثقف الرسولي، كما يجب أن تكون. في دروزة شيء قريب من شجر الصندل، بارد الملمس إن وافته اليد مترفّقة، وكاوٍ إن جاوزت اليد السطح إلى ما بعده.

يكمن سر دروزة، ربما، في كلمة محدودة الحروف هي: الحرية، التي تجعل الإنسان إنساناً وتؤكده ظلاً مديداً للإله على الأرض. والكلمة، إن جاوزت مدلولها الفردي وارتبطت بعالم الجماعة، غدت كلمة أخرى هي: الاستقلال. ولعل جدل الحرية والاستقلال، أو جدل الفرد الحر المقاتل من أجل جماعة حرّة، هو الذي أنشأ حياة دروزة وأعطاها القوام. يقول في محاضرة له، عنوانها: *الاستقلال حق طبيعي»، ألقاها في نادي شباب البيرة يوم الثلاثاء ٦ أيلول من عام ١٩٣٢ : *فالإنسان لا يمكنه أن ينتفع بمواهبه العقلية والبدنية والخلقية إلا إذا كان حراً في استعمالها لمصلحته، دون أن يقيّد هذه الحرية أي قيد يشلّها ويجعلها معدومة النفع والفائدة. وانتفاعه بمواهبه العقلية والبدنية والخلقية حق ملازم لحق حياته، بل هو محقق له، لأن حق الحياة لا يكون له ذلك المعنى النافع المفهوم إذا لم يتمتع صاحبه بحق الحرية في الانتفاع بمواهبه وقواه ومجهوداته تمتعاً كاملاً» [٦].

٢ ـ الصهيونية والشر الجوهري :

وضع محمد عزة دروزة تصوّره عن الصهيونية في كتاب من جزأين عنوانه : *العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها». وفي العنوان ما يوحي، ربما، بمنهج الكتاب ورسالته. فالمؤرخ يشتق العدوان الحديث من عدوان قديم، ويستدعي تفاصيل القديم، ليرى فيها وجه العدوان الحديث بلا نقصان. فالمشترك الموزّع، بتساو، بين الأزمنة هو : العدوان. كما لو كان في استمراره المتجانس يطرد الزمن ولا يحتاجه. توحيً أولوية العدوان على الزمن بشرّ قديم، هارب من الزمن ومتمرد عليه، يضع *الإسرائيلي» بداية، والصهيوني تالياً، في فضاء يطرد الإنساني العادي ويطارده. يكتب دروزة، وهو يرى الى شر يهودي تجوْهَر، السطور التالية : *إن القبيل الإسرائيلي قد صار شاذاً جداً، حيث كان في مختلف سيرته المعروفة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد من أسوأ ما يكون قسوة وظلماً وأنانية، وعدماناً وحقداً وشرهاً وانحرافاً إلا قليلاً جداً على ما يبدو من خلال تاريخه، نتيجة العقدة النفسية التي انفرد بها والتي جعلته يشعر بالانفصام والانفصال والانقطاع والتعالي عن الغير ولا يندمج مع أحد. جـ : ١. ص : ٢٤». يربط القول، ظاهراً، بين اليهود والسلب المطلق. لكنه لا يلبث أن يحاصر السلب المفترض بإشارة تاريخية مزدوجة : يحاصره وهو يعتبر القرن الثاني عشر بداية لشر يتلوه، موحياً بزمن سبق يوحّد اليهود مع غيرهم من أسوياء البشر ويحاصره وهو يتحدّث عن *العقدة النفسية»، أي عن شروط تاريخية جعلت اليهود على ما هم فيه من الانطواء والانفصام والتعالي على البشر. غير أن الإشارة لا تلبث أن تشدّ اليهود إلى السلب المطلق من جديد، لأن *العقدة النفسية» تقيم بين اليهود وأسوياء البشر فراقاً لا يمكن إصلاحه.

يتكئ دروزة في دراسته على الكتب الدينية اليهودية، ويكرّس لها الجزء الأول كلّه، مؤكداً أن سر اليهودي هو سرّ الكتاب الديني الذي يؤمن به. يقول: *والناس اليوم يغفلون عن ذلك

ويبحثون عن أسباب ما يفعله الغزاة الصهيونيون الحديثون من مثل هذه الأفعال. ودون أن ينتبهوا إلى أن ذلك شرع ديني عندهم يقرأون نصوصه صبحاً ومساءً ويتشرّبونه في كل قطرة من دمائهم. جـ : ١. ص: ٨٥». ولذلك، لن تكون الممارسة اليهودية، التي تحرق كل ما غايرها، إلا تجسيداً خالصاً لـ *سفرتثنية الاشتراع»، حيث على اليهودي أن يتعامل مع ما عداه بوسائل البتر والقطع والاستئصال والإبادة.. يقول الرب في هذا *السفر» للشعب اليهودي : *لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم على وجه الأرض». يحرق اليهودي الآخرين بنار إلهية، لا حبّاً بالنار، بل تجسيداً لإرادة إلهية تجسّدت، لهباً، في الإرادة اليهودية.

يؤكّد دروزة، وهو يقرأ الأسفار اليهودية، قوة النص وسلطة الكلمات. فهناك أولوية النص على التاريخ، حيث التغيّر يطال كل شيء ولا يصيب الكلام الالهي.

وأولوية الشرع الإلهي على المعايير الإنسانية، فوصايا الربّ عادلة وهي تحرق الزرع وتسمل عيون الأطفال. وأولوية الحق اليهودي على حقوق مَنْ غاير اليهود، طالما أن اليهود *أمة خاصة»، اصطفاها الربّ وأعلى من مقامها دون الآخرين. يرتبط الأمر بعلاقة اليهودي بمقدس، هو جزء منه وامتداد له، وذلك في كتابة إلهية لا تفصل بين اليهودي والمقدس أبداً. فاليهودي يمتثل، في لحظة أولى، للكتاب الإلهي الذي أُنزل عليه، ويمتثل، في لحظة تالية، للصورة التي أعطاها الرب له، ووضعه فوق البشر. بهذا المعنى، يتحصّن اليهودي بالمقدس ويجسّده في آن، أي أنه يحمل في ذاته ضماناً إلهياً، يعصمه عن الخطأ، ويضع بين أفعاله وأفعال الآخرين مسافة لا يمكن إلغاؤها.

يفضي التحصّن بالمقدس والاعتقاد بتجسيده، أو *الاختصاص بالتأييد الربّاني» بلغة دروزة، إلى أمرين، أولهما: الوقوف فوق البشر، تماشياً مع إرادة إلهية تتشخصن في الإرادة اليهودية، وثانيهما : الوقوف فوق التاريخ، اتفاقاً مع إرادة إلهية أزلية لا تتفق مع التاريخ. حين يشير دروزة إلى الأمر الأول يكتب: *فقد عاشوا في جو الأسفار وتلقيناتها ينظرون إلى غيرهم نظرة استعلاء وكيد وكره ومكر... وعاشوا منعزلين لا يمنحون الأوساط التي كانوا يعيشون فيها حباً ولا ثقة ولا ولاء ولا وفاء... جـ : ٦١». والأمر الثاني، أي الوقوف خارج التاريخ، فأكثر صَلَفاً وتعنّتاً. ذلك أن الانتساب، وَهْماً، إلى الفضاء الإلهي، يُملي على اليهودي أن يفتش عن معنى حياته في الفضاء المتوَّهم، مُعْرضاً عن عالم الأرض والبشر، الذي لا يوافق ماهيته. ولهذا تداعت المدن، قديماً، أمام *بني اسرائيل» بـ *معجزة ربانية»، وصمدت في وجوههم مدن أخرى، حين فرّت منهم *المعجزة» بسبب ذنوبهم وخطاياهم. وفي الحالين، يبقى اليهود في عالم *الاختصاص الرباني»، بعيداً عن البشر. فنصرهم يأتي من إيمانهم، وهزيمتهم تصدر عن ذنوبهم. كأنهم يعيشون في زمن مغلق متقشّف، قوامه الإيمان والخطايا العارضة.

يشرح دروزة العدوانية اليهودية بعدوانية النصوص الدينية اليهودية، منذ القرن *الثاني

عشر قبل الميلاد» حتى اليوم. كأن يكتب : ❋إن الصهيونية تستوحي كل خطواتها وممارساتها من هذه الأسفار وما ترسمه من خطط وتسجله من تسجيلات على اعتبار انها خطط دينية واجبة الالتزام ولا يمكنها أن تحيد عن أي شيء منها ولسوف يظل ذلك محركاً لها في كل وقت دون هوادة ولا فتور .... جـ : ١ ص: ٦٩ – ٧٠». وبالتأكيد، فإن المؤرخ الفلسطيني لا ينظر إلى تلك النصوص كنصوص سماوية، بل ككتابات موضوعة ذات أبعاد برجماتية، أملاها أكثر من سياق، كأن تحتفي بالخصوصية اليهودية الخارقة وهي تحتفي بنصر اليهود على غيرهم، أو أن تستنهض في اليهود إرادتهم الإلهية بعد هزيمة غير متوقّعة. وعلى هذا، فإن الأسفار اليهودية المختلفة لا تمثّل ديناً إلهياً، مرجعه المشيئة الإلهية، بل ايديولوجيا دينية، مرجعها سلطات بشرية موتورة، مشغولة بالثأر والانتقام وتقويض استقرار الآخرين. يقول دروزة : ❋ومن الدلائل على أن سفر التكوين كتب بعد طروء بني اسرائيل على أرض كنعان ونشوب العداء بينهم وبين الكنعانيين... ص: ١٦. جـ : ١»، أو : ❋والروح العدوانية في تسجيلات السفرين (سفر الخروج وتثنية الاشتراع) صارخة..... ونعتقد أنها قد دوّنت أو تدوولت معانيها في ظروف انتصار اسرائيلي قوي.... ص: ٦٤. جـ : ١»، أو : ❋ومع أن الأوهام اليهودية تتسم بالسمة الدينية فالدين الصحيح براء منها لأنها تتناقض معه كل التناقض. ص: ٧٠». يقرأ دروزة الدين السماوي، بالمعنى النبيل للكلمة، بمقولات التسامح والمحبة ورفض الظلم والعدوان، وهو ما لا يأتلف مع أسفار يهودية، تؤلّه اليهودي وتؤنسن الإله، كي تستولد منهما عنفاً مقدساً. ولعل هذا ❋العنف المقدس» هو الذي يضع الأسفار اليهودية خارج النص الديني الإلهي، فالله لا يحضّ على العنف، والدين الإلهي، يهودياً كان أو اسلامياً أو مسيحياً، يتوجّه إلى البشر جميعاً، بعيداً عن المراتب والطبائع المزعومة. بهذا المعنى ❋فإن بني اسرائيل حرّفوا بتسجيلاتهم رسالة موسى العامة التي تدعو جميع الناس إلى ربّ العالمين... ص : ٩٤. جـ : ١».

تنتهي الأسفار اليهودية، وقد انحرفت عن رسالة موسى، إلى جملة من الأساطير المتحجّرة. وما هذه الأساطير، كما يرى دروزة، إلا ترديد لذكريات قديمة، أعادت الرغبة بناءها، ونسبتها إلى الإله. ولهذه الذكريات، بالتأكيد، مرجع موضوعي ما، دون أن يعني ذلك أبداً أنها قد حصلت كما أرادتها الذاكرة اليهودية أن تكون. فالذاكرة الأخيرة لا تتخيّل معيشاً مضى، بل تعيش متخيلاً لم يرَ الحياة. والخلط بين المتخيّل والمعيش يحوّل التاريخ إلى حكاية، ويحرض اليهودي، الذي تسكنه الأساطير، على إعطاء حكايات التاريخ النهاية التي يريد. وهذا ما يحمل دروزة على القول: ❋الصهيونية حركة تستمد وجودها وعقيدتها من أوهام أسطورية ترتفع إلى أربعة آلاف عام متحجّرة كل التحجّر وعدوانية كل العدوانية... ومع أنها تتسم بالسمة الدينية فالدين الصحيح براء منها.... ص: ٧٠».

يبني دروزة خطابه، وهو يدرس العدوانية اليهودية، على أطروحات ثلاث، هي: عدوانية النص الديني المؤسطر، انحراف الأسفار اليهودية عن رسالة موسى، الديمومة الفاعلة للنص

الديني. تفسر الأطروحة الثالثة عدوانية الحركة الصهيونية، وتطابق العدوان الصهيوني الحديث مع العدوان الاسرائيلي القديم، ذلك أن الأول يكرّر الثاني لا أكثر. يكتب دروزة : *ولسوف يذهل القارئ حينما يقارن بين هذه المراحل (العدوان القديم) وبين مراحل الصراع الجديد الذي نشب بين الصهيونية وأهل فلسطين وبلاد العرب الأخرى نتيجة لتكرار الحماقة واتجاه اليهود الصهيونيين مرة أخرى إلى فلسطين... ص : ٧٨»، أو : *ومن المحزن الممضّ أن كل هذا تكرّر تجاه الغزاة القدماء حين اعتدوا على غرب الأردن. ص: ٨٦». يأخذ دروزة بمقولة التكرار مبدأ للتفسير، طالما أن النص الديني كان فاعلاً ومسيطراً في العدوانين القديم والجديد. ولهذا يستهل كتابه بعبارة *التاريخ يكرّر ذاته». فما يحصل في فلسطين اليوم حصل فيها منذ زمن طويل. ويكفي، بالتالي، قراءة القديم وتأمل نهاياته، من أجل التعرّف، بلا مشقة، على العدوان الحديث والحدس بنهاياته القادمة. ومع أن دروزة يأتي بملاحظات نيّرة وهو يفسر ظهور الصهيونية، كربطها بصعود القوميات الحديثة، وبأهداف استعمارية وبغايات سياسية بحتة، فإنه يتمسك بأطروحته الأساسية، التي ترى في الصهيونية استئنافاً لعدوان قديم، وترى في عدوانية الأسفار اليهودية مرجعاً للصهيونية وللعدوان القديم في آن.

يثير خطاب دروزة، وهو يشرح الصهيونية الحديثة، أسئلة عديدة، يرتبط أولها بمبدأ : التكرار التاريخي. فإذا كانت الصهيونية مجرد استعادة لعدوان قديم، فإن التاريخ، والحال هذه، مجرد زمن متتابع فارغ ومتجانس. وتصور كهذا يلغي، فعلياً، معنى التاريخ، لأن الأخير، وفي معناه الحقيقي، جملة تحوّلات مادية لا يمكن الرجوع عنها. يساوي المؤرخ الفلسطيني بين مبدأ التكرار ومبدأ التناظر، علماً أن الأخير يؤوّل ظاهر الأشياء ولا يشرح بنيتها الداخلية. فقد يبدو، ظاهراً، أن الصهيونية استرجاع لحلم أسطوري قديم، دون أن يعني ذلك أن البنية الصهيونية هي بنية الحلم الذي انقضى. فعلى مستوى البنية، فإن الصهيونية، رغم ما يخالطها من أوهام أسطورية، جزء من العالم الأوروبي الحديث. ففي المستوى الأيديولوجي، فإن في الصهيونية أصداء *مقلوبة» لمقولات التحرر الإجتماعي والقومي وأفكار المغامرة والاكتشاف ورسالة الرجل الأبيض الحضارية، وهي من أفكار الثورة البرجوازية.. بل إن البعض، وعلى تخوم موسى هسّه وكافكا، رأى في فلسطين مكاناً طهرانياً يحرّر الإنسان من اغتراب المجتمع الرأسمالي. وعلى المستوى السياسي، فإضافة إلى قومية متخيّلة تستنجد بأطياف أسطورية، كانت هناك مشاريع سياسية استعمارية، تلبّي مصالحها وهي تلبي مصالح حركة مشتقة منها، هي: الحركة الصهيونية. بهذا المعنى، فإن البنية الصهيونية، أيديولوجيا وسياسية واستراتيجيا، هي بنية معاصرة ارتاحت إلى فكرة فلسطين، لأسباب متعددة، ليس آخرها أساطير الأجداد الأولين. وعلى هذا، فإن انتصار المشروع الصهيوني في فلسطين لا يعود إلى *عدوانية الأسفار اليهودية»، التي يقول بها دروزة، بل إلى انتصار الثروة البرجوازية الأوروبية على التعاليم الدينية وانتصارها، تالياً،

على البلدان المتخلّفة، طالما أن البنية الصهيونية، في تشكّلها الأول، جزءاً من الزمن الأوروبي المعاصر.

يفضي تفسير دروزة للحركة الصهيونية إلى إشكال فكري ملتبس، يمكن أن يُصاغ بالشكل التالي: إن كانت عدوانية الصهيونية أثراً لعدوانية الأسفار اليهودية التي تؤمن بها، فإن تحقيق السلام لا يكون ممكناً إلا من خلال الاقتراحين التاليين: إمّا تحرير اليهود من دينهم الزائف المعارض لرسالة موسى، أو مجابهة الدين اليهودي الزائف بدين سماوي صحيح. يختزل الاقتراح، في شكليه، التاريخ كلّه إلى إشكال ديني، عاجز بطبيعته عن شرح التاريخ وعن التعامل التاريخي مع قضايا الحرب والسلام. فالسيطرة الأوروبية على العالم، والصهيونية الأولى مشتق لها، لم ينجزها التعامل الصحيح مع دين سماوي صحيح، بل الانتقال من «الإنسان الكنسي» إلى الإنسان الطليق. والتصور الديني للعالم لا ينتهي إلى شيء كثير، لأنه وهو يميّز بين الحرب والسلام يميّز، لزوماً، بين الجماعة الضالة والجماعة المؤمنة، أي يبدأ بمنطق التحارب وينتهي به، طالما أن على المؤمن أن يردّ الضال إلى جادة الصواب.

يدفع التصور الديني محمد عزة دروزة إلى إشكال ملتبس في أكثر من مكان. فهو يتحدّث، وفي أكثر من مكان، عن ضرورة تحرير الوعي المسيحي من الأساطير اليهودية، ذلك أن هذا الوعي لم يقف بعد على حقيقة «الدين اليهودي» الزائف، الذي انحرف عن رسالة موسى منذ زمن ساحق في بعده. والمؤرخ مخلص لتصوره، يسوّد العنصر الديني على غيره، ويضع جانباً مفهوم «ميزان القوى»، الذي يصوغ العالم فعلياً، في تجلياته التي تتضمن السياسة والاقتصاد والثقافة والتقنية والإعلام... ولعل التصور السابق، هو الذي يجعل دروزة لا يحرّر اليهود من «الخطيئة الأولى» إلا ليربطهم بها من جديد. فقد ولدوا أسوياء، ثم سقطوا سريعاً، ودون شفاء، في الاعتداء على الغير، حتى أصبح هذا الاعتداء عنصراً محايثاً للشخصية اليهودية. ومع أن دروزة يدخل في خطابه فكرة «العقدة النفسية»، كي ينقل اليهود من أرض اللعنة إلى مقام المرض، فإن طول مدة المرض تعيد خلقه كلعنة جديدة.

أراد دروزة، وهو يقرأ التاريخ اليهودي، أن يكون موضوعياً. وعثر على ضالته في أسفار العهد القديم (سفر التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية). بل إنه ذهب إلى نسختين منها، بروتستانية، وهي تسعة وثلاثون سفراً، وكاثوليكية، وهي ستة وأربعون سفراً. لكن الموضوعية التي قصدها المؤرخ، ومن وجهة نظر معرفية، ليست ممكنة، لأنه وقف، ايديولوجياً، على أرضية الايديولوجيا اليهودية التي ينقضها، أي أنه ردّ على المحاكمة الدينية بمنظور ديني أيضاً. ولعل هذا المنظور قاده إلى أسطورة الأصل، حيث الأصل القديم يعود في المستقبل كما كان، كما أشار آلتوسير إلى ذلك ذات مرة. وبما أن الأصل اليهودي القديم شرير ومنهزم، فإنه راجع، لزوماً، في المستقبل شريراً ومنهزماً أيضاً. ينتهي مفهوم التاريخ مُنهياً معه مفهوم السياسة. وبسبب مبدأ التكرار التاريخي، وهو أثير لدى دروزة وعزيز

عليه، يأتي الأصل الفلسطيني خيّراً ومنتصراً في الماضي والمستقبل معاً. في فلسفة الأصل، التي ترى في التاريخ حكاية سعيدة وبسيطة، تغدو الصهيونية ظاهرة قديمة، بل ظاهرة لا زمن لها تساوي لعنة إلهية متحررّة من الزمن أيضاً، وتصبح الكيانية الفلسطينية حاضرة في جميع العصور. وما كلمة *كنعان»، التي يردّها البعض بغبطة غير منقوضة، إلا ترجمة أسطورية لفلسفة الأصول، التي تبني مجداً فلسطينياً قديماً بحجارة مجد مقدس قائم في كل الأزمنة. والفلسفة هذه ليست بعيدة عن ثنائية الخير والشر في شكلها الحكائي، إذ الهزيمة قائمة في الشر قبل ميلاده. ولذلك يستطيع دروزة أن يكتب في نهاية الجزء الثاني من *العدوان الاسرائيلي القديم....» السطور التالية: *مما تقدم يبدو واضحاً أن استمرار الصراع حتمي بين العرب والصهيونية إلى أن ينتهي بالانتصار الحاسم لأحد الفريقين. ومقتضى التاريخ ونواميس الاجتماع أن يكون ذلك للعرب دون الصهيونيين... ص: ٢٥١». إن كان بعض الفلسطينيين يشتق التفاؤل من الصراع وجمالية الإرادة، فإن دروزة يستقي تفاؤله من ضمان إلهي.

٣ ـ منطق التاريخ والتراجيديا الفلسطينية :

مزج دروزة في *مذكرات وتسجيلات» بين السيرة الذاتية وسيرة جماعية، فكتب عن شاب نجيب التقى جرجي زيدان في نابلس واقتفى أخبار محمد عبده، وسجّل وقائع شعب تنتهك حقوقه قوى أجنبية متعدّدة. ولهذا أعطى كتابه، في جزأيه، عنواناً فرعياً هو : *مئة عام فلسطينية». لكن دروزة، الذي سجّل وقائع التاريخ من وجهة نظر عدالة فلسطينية قادمة، آثر أن يدوّن *الحقيقة الفلسطينية»، بشكل متسق، وفي كتاب من جزأين أيضاً، عنوانه *القضية الفلسطينية، في مختلف مراحلها»، ظهر في طبعته الأولى عام ١٩٦١، في ألف صفحة تقريباً.

وما كتبه دروزة تميّز من غيره. فالرجل يكتب عن وقائع عاشها وشارك فيها وسطّرها كمؤرخ محترف. يقول شارحاً طبيعة عمله ووظيفته : *إننا كنا شهود عيان من جهة، وفي بهرة العمل في هذه الأحداث والمشاهد والأدوار من جهة، وكنا ندوّن مذكرات في صددها من جهة. فرأينا أن هناك أشياء كثيرة يحسن نشرها والتعليق عليها بشيء من الاسهاب خدمة للتاريخ السياسي والنضالي لهذا القطر العربي وقضيته. جـ : ١. ص: ٢١». وواقع الأمر، أن دروزة يسمح بأكثر من قراءة للقضية الفلسطينية : قراءة أولى تساوي بين سيرة دروزة وسيرة فلسطين، بسبب حضور مستمر في الكفاح الوطني، توقف بين ١٩٤١ و ١٩٤٥، ذهب فيها الرجل إلى تركيا، إثر الغزو الإنجليزي لسوريا ولبنان أوائل ١٩٤١. قراءة ثانية كُتُبية، إن صح القول، جاءت في كتب كثيرة أشهرها : *القضية الفلسطينية». قراءة ثالثة، يصوغها القارئ، مُعْرضاً عن الأحداث المتتابعة، وذاهباً إلى القضايا التي تثيرها أحداث متلاحقة، تبدو مختلفة في الظاهر ومتساوية فيما يتجاوزه.

يتعامل كتاب دروزة *القضية الفلسطينية» مع زمن تتابعي يتوزّع على أحداث متلاحقة. ولذلك يبدأ الجزء الأول بعنوان كبير : الدور الأول ١٩١٧ – ١٩٣١، ويأخذ الجزء الثاني بعنوان موازٍ هو : الدور الرابع ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥. وفي هذين الجزأين يتابع المؤرخ الزمن المستقيم الذيً يصوغ الأحداث: وعد بلفور، ثورة يافا، الكتاب الأبيض، هبة البراق، ثورة فلسطين الكبرى، وَهْن الشعب الفلسطيني، حرب ١٩٤٨..... إذا وضع القارئ التتابع الزمني جانباً، ورأى إلى جملة العناصر التي تصوغ الأحداث، وصل إلى شيء محدّد يدعى بـ : التراجيديا الفلسطينية. فقد كانت فلسطين، رغم الكفاح الشعبي، تذهب بشكل مستقيم إلى مآلها المحتوم. ولن يختلف الكفاح الشعبي عن خطا واضحة لثائر شجاع ذاهب إلى المقصلة. فالخطوة الواضحة، التي لا تشي بخوف وانهيار، لن تعصم القلب الشجاع عن الوصول إلى المكان الذي لا يرغب فيه.

يضع المؤرخ في بدايات كتابه عنواناً فرعياً هو : *الحركة الفلسطينية منذ البدء». وبعد صفحتين، وإضاءة لهذا *البدء» يضع عنواناً فرعياً آخر هو : *تجدّد الحركة في مؤتمر حيفا». يتضمن السطر الأول الذي يلي *التجدّد» الكلمات التالية : انهيار، صدمة، عزلة، يأس. والمقصود هنا هو : انهيار العهد الفيصلي في دمشق الذي صدم شعب فلسطين وتركه يقاتل وحيداً، بعد أن يئس من التضامن العربي. انتهى العهد المنهار في منتصف ١٩٢٠، وأعقبه بعام ذهاب الوفد الفلسطيني الأول إلى لندن. إن ما أعقب *العهد الفيصلي»، وهو مليء بالسلب، يظهر من جديد تحت عنوان جديد هو : دسائس اليهود بين العرب. والسلب الجديد هو : *أن اليهود استطاعوا أن يحملوا بعض المارقين والمأجورين على الإبراق إلى لندن بعدم تمثيل الوفد لعرب فلسطين كافة وبوجود فريق من العرب راضٍ عن الوطن القومي (اليهودي) ومقتنع بفائدته. ص: ٤١». وعلى الرغم من هامشية المارقين، وهم من الذين احترفوا العمل السياسي، فإن دروزة يندّد بهم دون انقطاع، كما لو كان هؤلاء جزءاً، لا يموت، من الحياة السياسية في فلسطين، التي، نادراً، ما عبّرت عن إرادة الشعب الفلسطيني، ولذلك يعود المؤرخ، وفي الصفحة ذاتها، فيتحدث عن *المائعين والطامعين والنكرات من العرب في فلسطين»، ويتكلم، بعد صفحة، عن *الشذّاذ المعروفين»، الذين يعتقدون أن توطيد مواقع المستعمر الانجليزي يوطّد سيطرتهم، كما يشير دروزة في أكثر من مكان.

بعد صفحات قليلة جداً يأتي العنوان الفرعي التالي: الحزب الزراعي والحزب الوطني، وهما حزبان *كان لهما أثر قوي في تفرق الصفوف وتوهين العزائم وإضعاف الحركة الوطنية. ص: ٤٦». في الصفحة اللاحقة عنوان جديد هو: كلايتون وأصبعه. موضوعه دور موظف إنجليزي في استقطاب *الوصوليين البارزين من العرب. ص :٤٧». أما الصفحة اللاحقة، ويتوسّطها عنوان: *مدى ظهور الحزب الوطني» فتأخذ بلغة أكثر حدّة وشدّة، وهي تندّد برجال الحزب الوطني، الذين كان لهم: *مواقف عديدة في مساوقة الحكومة والسير في توجيهاتها ومناوأة الحركة الوطنية كما كان لبعضهم يد بارزة في السمسرة

وبيوع الأراضي لليهود. ص : ٤٨»، إلى أن يقول : *إن ما كان من دسائس ودعايات، وما لعبته الأوشاج والأنساب والعصبيات والمنافسات المحلية من أدوار قد ساعد كثيراً على تحقيق شيء غير قليل من تلك الغاية وعلى طروء شيء غير يسير من الفتور والوهن على الحركة الوطنية ونشاطها. ص: ٤٩».

ولن يختلف الأمر على الإطلاق في الصفحات اللاحقة. فالعنوان الخاص *حول المجلس الإسلامي» يشرح التحارب المفتوح بين عائلتين شهيرتين على المناصب الدينية، تدفع المؤرخ إلى تفصيل جديد عنوانه : *انتخابات المجلس الإسلامي وأثرها في ضعف الحركة الوطنية. ص : ٥٣». وربما يقدّم المقطع التالي صورة عن فلسطين في منتصف العشرينات : *وهكذا كان في فلسطين سنة ١٩٢٥ منظر كريه بائس ومحزن ومؤسف معاً اختلط فيه الحابل بالنابل وتساند فيه المخلص مع المغموز، وفسدت فيه المقاييس وانحطت الأذواق والأخلاق وضاع المنطق... ص : ٥٤». ومع أن دروزة لا يكتب كثيراً عن الحركة الشعبية، وهي حركة عفوية وموسمية وبالغة الوطنية، فإن فضاء الاحتراف السياسي، الذي يتحدّث عنه، مخترق بـ *حرب أهلية» دائمة، ذلك أن هذا *الاحتراف» منصرف إلى المصالح الذاتية والعائلية لا أكثر. بيد أن المأساة الأولى، أي الحرب الأهلية على مستوى الأعيان، لا تلبث أن تتناتج في مأساة ثانية، لأن قادة الحرب الأهلية على المستوى الفوقي، هم الذين كانوا يتحكّمون بحركة شعبية عفوية، محظور عليها الاقتراح والعمل السياسيين.

يتحدّث دروزة، وبنبرة حارقة، عن ضياع المنطق واختلال المعايير. فوفقاً للمنطق، فإن الصفة الوطنية في فلسطين، وخارج فلسطين، تتعيّن بموقف المستعمَر (بفتح الميم) من المستعمر (بكسر الميم). غير أن المنظر الفلسطيني البائس، الذي استمر أمداً غير قصير، كما يقول المؤرخ (ص ٥٧)، أنتج *الوطنية الثنائية» أو *الخنثوية»، التي تعني وقوف عدد من السياسيين إلى جانب الاستعمار الانجليزي، بحجة أنه لا يمكن مقاتلة الإنجليز واليهود معاً. ومع أن *الخنثوية» توقفت خلال ثورة ١٩٣٦، فإن *استنساخ مرضى القلوب» عاد قوياً بعد انطفائها، فاتحاً الطريق لـ *تيار السمسرة وبيع الأراضي إلى اليهود دون ما حرج ولا خوف ولا تجريح، حتى كاد يستسيغ ذلك بعض المعروفين من الوطنيين النظاف وأن يسقطوا هم الآخرون في هوّته بل ومنهم من سقط فيها بشكل من الأشكال... ص : ٥٧». ومع أن المنظر السياسي البائس استمر ردحاً من الزمن غير قصير، بلغة دروزة، فإن كتاب *القضية الفلسطينية»، في عناوينه الأساسية والفرعية، يدلّل على مشهد بائس عاش طويلاً. فبعد منتصف العشرينات، التي أشار إليها المؤرخ بلغة شاكية، تأتي بداية الثلاثينات، حيث عُقد *مؤتمر إسلامي» التهمت *الطبيعة الشرقية» سريعاً شعاراته الطنّانة، وحيث *جرؤ بعض كبار مرضى القلوب والوطنية على تشكيل شركة للمتاجرة في الأراضي التي أخذت حركة الطلب عليها تشتدّ وأسعارها ترتفع بسبب هجرة اليهود الألمان ... ص: ٩٠». وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، والنكبة تطرق الأبواب طرقاً عنيفاً، حتى انفتحت الحياة الوطنية

الفلسطينية على الفراغ، فـ *اللجنة العربية العليا»، التي كانت تتابع الشأن الوطني، ولو بقدر، تفككت، ولم تأخذ مكانها أية لجنة لها قيمة. ولذلك يبعث دروزة من دمشق، وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٥، إلى أحد أصدقائه الرسالة التالية : *فقد كان الحال شيئاً محزناً من دون ريب، وكان من شأن الفراغ الذي نشأ من عدم وجود هذه اللجنة أن يضرّ بسمعة فلسطين وقضيتها ضرراً بالغاً. وكل ما نرجوه بعد الآن أن يتم الانسجام والتمازج بين الصالحين....» [٧]. ويعود دروزة فيكتب إلى صديقه في أيار ١٩٤٦ : *إن الموقف الخطير الذي تقفه البلاد يجعل التضامن والتساهل في الوصول إليه محتماً على كل وطني، فالناس في الخارج يتأذوّن وإخوانكم يتأذوّن معهم من سيرة التشاد على عدد المقاعد والأشخاص بين الزعماء في فلسطين ويرون في ذلك مهزلة أليمة...» [٨].

تبدو *الحرب الأهلية المفتوحة»، وكما يبرهن دروزة، الصفة الأدقّ التي توافق سياسة الوجهاء والأعيان والزعماء. فما من مبادرة وطنية إلا وتنتج من داخلها ما يقوّضها، وما من فعل أخلاقي مسؤول إلا ويستولد ما يبددّه. كما لو كانت الحركة السياسية الوطنية، كما عرفتها فلسطين، بين وعد بلفور وقيام الدولة الإسرائيلية، نفياً لمعنى السياسة والوطنية معاً، مع استثناءات أكيدة، كانت تُدفع دفعاً إلى اليأس واللواذ. وتظهر هذه الحقيقة عارية عند الوقوف على القاموس اللغوي الدارج على قلم دروزة، والذي يتضمن: مرضى القلوب، الميوعة، التفكك، تلبية الولائم الإنجليزية، القلة الوطنية العاقلة، التهاتر، التشاد، الوهن، الصلات المشبوهة، التشتّت، الروح الحزبية الشخصية، التنافس المقيت.... يفضي ما يقول به دروزة إلى فكرة أساسية هي: غياب السياسة المجتمعية في غياب العلاقات المجتمعية. فقد شكّل الوجهاء والأعيان والزعماء، مع استثناءات قليلة، مجتمعاً فوقياً مراجعه المصالح الذاتية والعائلية والجهوية، أي جماعة عضوية، لا تحيل على المجتمع والوطن، بالمعنى الحديث للكلمة. ووجد، في المقابل، مجتمع تحتي فلاحي، وهو الغالبية الفلسطينية، يتأسس بدوره على العلاقات العضوية، وعنوانها العائلة ومشتقاتها، دون أن تمنع عنه هذه العلاقات شعوراً عميقاً وكفاحياً بمعنى الوطن، بسبب ارتباطه بـ *الأرض»، التي تؤمّن له الرزق والاستقرار والهوية. وبسبب ذلك كانت ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ثورة ضد الاستعمار الإنجليزي والمشروع الصهيوني وسياسة الأعيان. وإذا كان فشل الثورة قد فتح الباب واسعاً أمام ضياع فلسطين، فإن هذا الفشل حرّر *الزعماء» من العمل السياسي، حتى في شكله الشكلاني ـ البرجماتي، وأطلقهم في بحث مسعور عن مصالحهم الخاصة، التي لم تلتفت إلى فلسطين، لا قبل النكبة ولا بعدها.

بدأ دروزة، الذي اتصل بعز الدين القسام ذات مرة، كتابه بـ *الانهيار الفيصلي»، وأعقبه بالانهيارات اللاحقة في فلسطين. كأن الانهيار هو الزمن الثابت الذي يوحّد كل الأزمنة، أو كأن الزمن الراكد مرجع لما غايره من الأزمنة. ولهذا، فإن كتابة التاريخ الفلسطيني الحديث كزمن تتابعي، لا تحمل الكثير من المعنى، إلا إذا لازمها تاريخ آخر أكثر تعقيداً، يدلّل على عقم

الزمن التتابعي ولا جدواه. ولعل هذا التاريخ التتابعي، ومن وجهة نظر المهزوم، هو الذي يحوّل التاريخ إلى حكاية، يكتب بدايتها التاريخ ويضع نهايتها وعي مهزوم يهرب من التاريخ. ينهي دروزة *القضية الفلسطينية» بالسطور التالية: *فدولة اليهود في فلسطين عوامة، ولا أقول جزيرة، في خضم عربي صميم. وهذا الخضم يزداد قوة وهولاً وهياجاً واضطراباً حولها ولسوف يحطمها ولن تستطيع أن تصمد أمامه إلى ما شاء الله.... ص : ٣٥٢».

في الجزء الثاني من كتابه *مذكرات وتسجيلات»، يرى دروزة انهيار العهد الفيصلي في أسباب أربعة : غدر فرنسا وبريطانية بخاصة، وعدم تنظيم قوة حربية كافية، وعدم تحلّي فيصل إذ ذاك بالصفات المقتضية، وعدم نضوج رجال الحركة وهشاشة بنية الأمة العربية بفعل السبات الطويل. فإن توقّف أمام السبب الأخير، تحدّث عن *أمة مفككة الأوصال موزّعة الأهواء والأفكار والميول فقيرة في كل شيء مرتكسة في الجهل التام مضى عليها قرابة ألف عام في سبات. ص : ٢١٩». والأمة المفككة في أوصالها والغارقة في جهلها صورة عن فلسطين، التي هي منها. والانهيار الفلسطيني امتداد للانهيار *الفيصلي» الذي لا ينفصل عنه. ولذلك ينتسج التراجيدي الفلسطيني بخيوط عربية وخيوط فلسطينية متناظرة، طالما أن الألف العام من السبات تتوزّع على الطرفين معاً. وإذا كان دروزة قد رسم صورة كريهة ومقيتة لفلسطين في منتصف العشرينات، فإنه يقدّم صورة أشدّ مقتاً وأعمق بؤساً للأمة العربية عشية ضياع فلسطين. وسيضيق قاموسه اللغوي عن وصف الاستخذاء والاستنقاع والابتذال والخنوع والتآمر الذي كان يخترق العالم العربي، وهو يترك *فلسطين الشهيدة» تذهب إلى مآلها الأخير. وبقدر ما كانت القوى الاستعمارية تبني المشهد السياسي الفلسطيني وتهدمه، كانت القوى ذاتها تفتح أبواب القصور العربية وتغلقها حين تشاء. وبما أن المساجين لا يحاربون، فقد كان على من ذهب إلى المعركة أن يموت أو أن يعود إلى السجن من جديد.

لا يرسم دروزة، وهو يرصد التراجيديا الفلسطينية، فعلاً عربياً إلا ويعطفه على الإخفاق الذي يؤول إليه. ينقلب المشهد تماماً وهو يرى إلى المشروع الصهيوني، الذي تنصره الإرادة الإنجليزية والأمريكية والأوروبية وخبرة يهودية متراكمة، أي تنصره القوى التي هزمت *الألف عام تقريباً من السبات». بهذا المعنى، فإن انتصار الصهيونية هو انتصار *الحضارة الأوروبية»، التي تتخفّف من معايير الحضارة وهي تتعامل مع *الطوائف غير اليهودية في فلسطين». ودليل حضارتها إلغاء الشعب الفلسطيني كشرط للتعامل معه، وإرجاعه إلى *مجموع غير يهودي»، كما لو كان ما هو يهودي هو المرجع الذي يقترح الكلمات وأحوال الصفات. ولهذا استطاع اليهود، في بداية العشرينات، في زمن المسؤولين البريطانيين وصموئيل وبنتويش، وهما يهوديان صهيونيان، أن يعقدوا *صفقات الأراضي بالأسعار الزهيدة وزالت معالم عشرات القرى العربية، ومنح اليهود امتياز كهرباء عموم فلسطين وامتياز استثمار البحر الميت، الذي قدرت كنوزه بأربعة وعشرين ملياراً من الجنيهات. وأقطع

اليهود أكثر أراضي الدولة ووضعت القوانين الحامية للصناعات اليهودية.... ص: ٣٤».

خلقت *التراجيديا الفلسطينية» زعامات لا تعرف معنى التاريخ، وآلهة استعمارية أوروبية معجزاتها البارود والمدافع والوعود الكاذبة، فالقوة تعطي لصاحبها حق الكذب بلا رقيب، وتملي على الضعيف أن يرى في الكذب صواباً. وكان على المؤرخ دروزة، الذي حلم بفلسطين منتصرة، أن يجيب على سؤال كئيب: كيف يكتب المهزوم هزيمته؟ وإذا كان بإمكان عشاق الخطابة العربية أن يؤجّلوا سؤال النصر إلى الأبد، وأن يصيّروا الأبد إلى لحظة من الزمان نافلة، فقد كان على دروزة أن يحترم المؤرخ الذي فيه وأن يحتفظ بالمحرّض الذي لازمه في حياته كلها. وفي دفاعه عن المؤرخ، الذي هو منه وفيه، كان على دروزة أن يقوم بعمله كما يجب أن يكون. فقام، أولاً، بوضع *التراجيديا الفلسطينية» في سياقها، فهي علاقة في *الانهيار الفيصلي» والانهيار هذا علاقة فيها، و*السبات الطويل» يوحّد الطرفين. فالأحداث لا تصبح تاريخية إلاّ إذا وُضعت في إطار تطور معيّن، يُلزم المؤرخ بربطها بتسلسل زماني محدّد. وقام، ثانياً، بإظهار تلك العلاقة المؤسسية بين الأحداث التاريخية والوعي بها، ذلك أن *بعض فلسطين» كان يعيش حدثاً ولا يعرف دلالته، مما جعل الكثير من الفلسطينيين يعتقدون أنهم هازمون لأعدائهم لا محالة. وإذا كان دروزة المحرّض مؤمناً، بلا هوادة، بـ *ضلال اليهود وخسرانهم»، فإن المؤرخ فيه، وهنا العنصر الثالث، وضع *تصورات المثقف» جانباً، ورأى *عمل اليهود المجتهد» من أجل السيطرة على فلسطين، بل رأى فعلاً بطولياً، أحياناً، وعملاً منظّماً متقناً، لا يعرفه العرب ولا يميلون إليه. كأن يكتب في الجزء الثاني من *القضية الفلسطينية» : *ومن الجدير بالذكر ان الثورة اليهودية كشفت عن جيل يهودي جديد ومتحمس لقضية الدولة اليهودية والقومية اليهودية والوطن القومي التاريخي الكبير الشامل كل الحماس ومؤمن كل الإيمان، وكان يضطلع بالثورة متحملاً جسيم التضحيات بالرضاء والاغتباط، وقد ظهر أثر هذا بما كان من جرأة عظيمة وإقدام مدهش في مختلف الأعمال والحركات والمواقف رغم ما كان يقع منهم من ضحايا جسيمة، كما ظهر أثره في المحاكمات، حيث كان المتهمون يعترفون بأعمالهم بزهو واعتداد ويعلنون عن تصميمهم على الاستمرار فيها وشرعية ثورتهم... ص: ١٦». تضيء هذه السطور، كما غيرها، التناقض الموضوعي في شخصية دروزة، إذ المحرّض فيه يتعامل، في أكثر من مكان، مع *ضالين، كُتبت عليهم المهانة إلى يوم الدين»، بينما يبتعد فيه المؤرخ عن البلاغة، متعاملاً مع الوقائع، دون تحيّز أو خطابة. بل أن التداخل بين المؤرخ والمحرض قائم في التعامل مع الشأن الفلسطيني، حيث يتبادل الغضب الشديد والتبرير العطوف المواقع، كما لو كان المؤرخ يرجم *ضحية جاهلة» ويطبّب جراحها في آن. فالقيادة أنانية والشعب شجاع، وبعض القيادات أقل أنانية من بعضها الآخر، والشعب الشجاع، الذي لا يعرف الأنانية، لا يعرف ما يدور حوله، تماماً. والسؤال كله قائم في مكانه : كيف يكتب المهزوم هزيمته؟.

إن كان المؤرخ ينزع، ولو بقدر، إلى التجرّد والموضوعية، وهو يتحدّث عن وقائع ابتعدت،

ولو بقدر، مثل الاستبداد العثماني ووهن البنية العربية وتماسك *الثورة اليهودية»، فإن المؤرخ يُسلّم أوراقه وأقلامه وأقداره إلى المثقف المحرّض، حين يتأمل المستقبل الذي لم يأتِ بعد. يكتب دروزة عن *ضعف البنية العربية» في النصف الثاني من الأربعينات، أي في زمن *الثورة اليهودية»، فيقول : *ولكن ضعف هذه البنية والأنانية وضيق الأفق وعدم التجرّد والإدراك الواسع أدركهم بشرّه إدراكاً أليماً فضاعت على العرب فرصتهم الذهبية، وكان من أثر ضياعها ما كان من تلك الكارثة التي أذلّتهم جميعاً أمام أذلّ أمم الأرض وألقتهم في الحضيض والخزي وأفقدتهم كل معنى من معاني الكرامة والهيبة والحساب وجعلتهم سخرية الساخرين وألعوبة اللاعبين. الجزء الثاني ـ القضية الفلسطينية. ص : ٣٠».

هذه اللغة المنسوجة من الغضب والاستنكار، التي وضع فيها المؤرخ كتابه الذي ظهر في عام ١٩٦١، تنقلب إلى لغة أخرى مليئة بالدفء والأمل وهي تكتب عن : *وقائع وأحداث وظروف فيها الأمل والبشرى للعرب»، أي وهي تكتب عن قادم مفترض، آيته ما يلي : *وهذا سر ما يبدو من تهافت شديد من اليهود وحماتهم على قيام حالة الصلح بينهم وبين العرب، لأنها تضمن بقاء المسخ اليهودي وتفتح أمامه آفاق البلاد العربية. ولكن هذا هو كذلك سر ما يبدو من العرب من تصميم وإصرار على رفض الصلح. وكل عربي من حكام وساسة ورؤساء وشعوب يعرفون هذا السر المزدوج. ولسوف يحرصون أشدّ الحرص على الوقوف عنده إلى أن تأتي الفرصة المناسبة لاقتلاع الجرثومة من أساسها. وإذا وجد من يجرؤ على مخالفته فسيكون مصيره الهلاك الرهيب. ص: ٣٣٣». يستولد دروزة لغته من رغبات المهزوم ومن سياق سيطر عليه قائد عربي نزيه وأخلاقي وشجاع هو : جمال عبد الناصر. وإذا كان من حق المهزوم، ومرجعه المثقف التحريضي، أن يستولد لغة طليقة من الرغبة المتحررة ومن أخلاقية قائد وطني مضى مقاوماً، فإن هذا الحق يتداعى، لحظة الالتفات إلى المؤرّخ، الذي يرى الوقائع في سياقها التاريخي. ففي اللحظة التي كان فيها المؤرخ ينصاع إلى رغبته، كانت *البنية العربية» لا تزال على ضعفها، وكانت وقائع *القطرية والتبعية والتخلّف» هي التي تحكم الواقع العربي، على الرغم من صوت نزيه واعد، هزمته *بنيته الضعيفة»، قبل أن تهزمه قوى متآمرة عديدة، مختلفة اللغات والأديان. ولعل من يقرأ الثلث الأخير من كتاب *القضية الفلسطينية» والجزء الثاني من كتاب *العدوان الإسرائيلي القديم...» وكتاب *القرآن واليهود»، وكتباً أخرى، يقف على تصوّر رَغَبي ـ أخلاقي للتاريخ، يقترح من الهزائم والانتصارات ما يشاء. يتخفّف دروزة، في أكثر من مكان، من صناعة المؤرخ، مرتاحاً إلى فلسفة تاريخية معينة، تساوي بين التاريخ و *صيحات الحق الذي يهزم الباطل». سعى دروزة، ربما، إلى تفسير التاريخ بمقولة *الحق»، التي لا تحتاج إلى غيرها. والحق هو الحق الفلسطيني، الذي ينقض الباطل الإسرائيلي، والحق هو عروبة فلسطين، التي تنفي الدعاوى الإسرائيلية، والحق هو كثافة التاريخ العربي، الذي ينكر هشاشة الوجود اليهودي في فلسطين. وبسبب هذا الاعتقاد، المطمئن إلى حق متعدد، ظنّ دروزة أنه قادر

على التنبؤ بما سيحدث، دون أن يميّز بين أخبار الماضي وممكنات المستقبل. ولهذا، فإن الفصل الثاني من الجزء الثاني من «العدوان الإسرائيلي القديم...»، هو أقرب ما يكون إلى «رواية مستقبلية» مجردة، هي رواية «الوحدة العربية»، التي إن تحقّقت، وتحقّقها أكيد، أعادت الأمور إلى مسارها الصحيح.

تطرح أعمال دروزة سؤالين، أحدهما يرتبط به، وثانيهما بغيره. السؤال الأول: هل يبقى المؤرخ مؤرخاً إن أدرج رغبته في الخطاب التاريخي الذي يصوغه؟ أو : ما معنى التاريخ إن أُغفل الحاضر واكتفى بزمن ماضٍ لا يُرى وبزمن مستقبلي لا يُرى أيضاً؟ أو : هل المستقبل من صنع ماضٍ منتصر، أم من صُنع حاضر مختلف عن الزمنين معاً؟ أسئلة لا تمس، بالضرورة، دروزة وحده، بل تمس كل من حاول أن يحوّل «التمرد» إلى «علم أكيد». السؤال الثاني هو: هل كان الشعب الفلسطيني داخل التاريخ أم خارج التاريخ وهو يخوض معركة لا يعرف دلالتها؟ يبرّر هذا السؤال ما كتبه دروزة في «القضية الفلسطينية»، عن فلسطينيين يكافحون ولا يدركون، تماماً، معنى المشروع الذي يناهضونه، وعن فلسطينيين آخرين لا يكافحون، لأنهم لا يرون من المشروع الصهيوني شيئاً. والسؤال ضروري من وجهة نظر الخطاب التاريخي الذي يقول: لا وجود لوقائع تاريخية بمعزل عن الوعي الإنساني بها، ذلك أن ما يميّز وقائع الطبيعة الصمّاء عن وقائع المجتمع البشري، هو ارتباط الأخيرة بالوعي والإرادة البشريين. مع ذلك، فإن الصراع في فلسطين، بين وعد بلفور وقيام دولة اسرائيل، أنتج حدثاً تاريخياً، بالمعنى النظري الدقيق للكلمة، أي أنتج آثاراً لا يمكن العودة عنها. يفضي الخطاب التاريخي، في دلالتيه، إلى نتيجة مؤسية محوّطة، ربما، بالالتباس، تقول: أنتج الصهيونيون مشروعهم في «وطن قومي»، وهم يعيشون داخل التاريخ، وفقد الفلسطينيون أرضهم، وهم يقفون خارج التاريخ. ومع أن القوى الاستعمارية الحديثة لعبت دور آلهة اليونان القديمة في «التراجيديا الفلسطينية»، فإن ما يفضي إليه الخطاب النظري التاريخي، يظل قابلاً للحوار والمساءلة.

٤ ـ العروبة والإسلام وقوة العروبة المنتظرة :

اتكأ دروزة، وهو يعالج القضية الفلسطينية، على أطروحتين أساسيتين. تقول الأولى بقدم عروبة فلسطين، فهي عربية اليوم، بقدر ما كانت عربية حين اجتاحها «العدوان الإسرائيلي القديم». وهذا ما وضع على قلم دروزة، وهو يكتب عن زمن الكنعانيين وما سبقه، صفة أثيرة هي: «عروبة الملامح»، التي يُسْبغها على الأرض والملوك والبشر. تقول الأطروحة الثانية، بداهةً، بقدم القومية العربية، التي وإن اتّخذت من الجزيرة العربية مرجعاً، أطلقت موجات بشرية متعددة خارجها، وجوهها: الفينيقية والكنعانية والفرعونية والآشورية والآرمية والبربرية، أي جملة «الشعوب»، التي يدّعي المستعمرون و «الشعوبيون» بأنها غير عربية. وبهذا المعنى، فإن دروزة يقرّر ويساجل، يقرّر «حقائق تاريخية»، ويساجل من

يقول بلا تجانس شعوب الحكومات العربية.

في مواجهة *العدوان الاسرائيلي»، قديماً وحديثاً، أكّد دروزة عروبة فلسطين، قديماً وحديثاً أيضاً. وقاده منطق السجال والمواجهة إلى قراءة النصوص اليهودية القديمة، المنسوبة إلى العهد القديم، وهدفها تبرير *الغزو الإسرائيلي» لفلسطين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قبل الميلاد. وإذا كان المؤرخ الفلسطيني، الذي دعا إلى الكفاح المسلّح منذ بداية العشرينات، قد ردّ على الدعاوى الإسرائيلية القديمة في كتب كثيرة، منها *عبرة من تاريخ فلسطين»، فإنه قرأ عروبة فلسطين في نسق آخر من الكتب، ينتمي إليه كتاب *صفحات مهملة ومغلوطة من سيرة القضية الفلسطينية وحركة المقاومة العربية فيها».

ولعل الروح الكفاحية، كما الردّ على أعداء القومية العربية، هو ما دفع دروزة إلى جهد بحثي جليل، لا تنقصه المغالاة، تكون فيه القومية العربية كاملة وقديمة في آن، إن لم يكن كما لها أثرٌ لقدمها. وتصوّر كهذا يضع جذور الوحدة القومية العربية في الألف الأولى قبل ميلاد المسيح، ويرى في سكان *المهاجر العربية» وحدة متجانسة خرجت، وفي أزمنة مختلفة، من شبه الجزيرة العربية. وهذا ما يؤالف بين سكان منطقة بلاد الشام والعراق ووادي النيل والمغرب العربي. وقد حرص دروزة، وبتأكيد لا تراخي فيه، أن يبيّن أن نظريته في القومية العربية لا تقوم *على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط، بل على الأساس القومي القائل بوحدة الوطن واللغة والمصلحة.... نشأة الحركة العربية الحديثة ص : ٣٨ وما يليها».

اشتق دروزة معنى القضية الفلسطينية من معنى القومية العربية، ووطدّ، نظرياً، دعائم الثانية، بحثاً منه عمّا يوطّد معنى القضية الأولى، كما لو كان تحقق القومية العربية يفضي، لزوماً، الى تحقق القضية الفلسطينية. ويعود هذا الى منظور المؤرخ، الذي عمل طويلاً في حقل السياسة الوطنية، بقدر ما يعود الى السياق التاريخي، الذي استلهم منه دروزة معنى القومية والانتماء القومي، وهو سياق عثماني سمته الطورانية والتتريك وتهميش الكيان العربي. كتب دروزة، وفي الجزء الأول من: *مذكرات وتسجيلات»: *ولقد بدأنا نشاطنا السياسي والاجتماعي والأدبي منذ اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، واندمجنا في كثير من التنظيمات السياسية والوطنية والاجتماعية في زمن الدولة العثمانية وبعدها .... ص : ١١». ومع ان المؤرخ يرد جذور القومية العربية الى زمن سحيق، فإن السياق الذي أنتج وعيه العروبي، هو ذاك الذي تمازج فيه التوسع الاستعماري في الوطن العربي وظهور المشروع الصهيوني وتزايد نفوذ الاتحاديين المعادين للعرب في أجهزة الدولة العثمانية... صدر عن هذا السياق تصور قومي سجالي ـ عملي، يخلط النظرية بالتحريض، ويرى في العمل السياسي العربي الوحدوي ضرورة قومية، الأمر الذي وزّع حياة دروزة على *تنظيمات» مختلفة.

كان منطقياً، في هذا السياق، أن تكون فلسطين جزءاً من سورية، وأن تكون سورية هي

مجال العمل من أجل سورية الجنوبية، أي فلسطين. وفي هذا العمل الوطني، الذي تتحوّل فيه دمشق والقدس وبيروت إلى مواقع جغرافية لا أكثر، صاغ دروزة حياة كفاحية حافلة، التقى فيها النخبة الوطنية العربية الحديثة، وتعلّم فيها أن المدن العربية موحّدة، رغم طغيان أجنبي راحل، بعد حين. وكان عليه، كما على غيره، تقديم اقتراحات قومية متواترة، غايتها : *الوقوف في وجه السياسة الإنجليزية ـ الصهيونية والدفاع عن عروبة فلسطين، وعدم عزلها عن قافلة العروبة العامة وحركتها القومية. وظل هذا التضامن متجلياً في جميع ظروف النضال في فلسطين، فكان مضرب المثل وموضع الإجلال. ولكن كل ما قام به عرب فلسطين وبذلوه تحطّم على صخرة المؤامرة الإنجليزية ـ اليهودية ضد الأمة العربية وحركتها القومية ... ص : ٣٥. القضية الفلسطينية. الجزء الأول». التآمر على فلسطين، إذن، تآمر على القومية العربية، والإنتماء إلى القومية العربية والدفاع عنها، انتماء إلى فلسطين والدفاع عنها. إن هذا المنطق، وهو صحيح بشكل عام، لم يمنع عن خطاب دروزة شيئاً من الارتباك، سببه تصوّر *جوهراني»، إن صح القول، يمزج بين العرب والعروبة والقومية العربية، كما لو كانت العروبة جوهراً صافياً ومنجزاً، لا يطاله خلل ولا يخترقه تناقض. ومع أن المؤرخ الوطني الكبير يفصل بين السلطات و *روح العروبة»، فإن أحلامه بـ *قافلة العروبة العامة»، تفرض على أسلوبه، أحياناً، نبرة تبشيرية عالية.

انطلاقاً من سياق استعماري معاد للعرب أنتج دروزة أيديولوجيا قومية عربية، توحّد العرب في الحاضر، وتردّهم جميعاً إلى تاريخ قديم موحّد. وكان دروزة، وقد سكنه هاجس وطني نبيل، يخلط بين الأيديولوجيا القومية، وهي جملة تصورات وأفكار ورغبات، والقومية الموجودة فعلاً، والتي تتجاوز الأيديولوجيا وتتعيّن بجملة من العلاقات الإجتماعية الأكثر تعقيداً. ولعل شعوره، ربما، باضطراب العلاقة بين القومية الفعلية والايديولوجيا القومية النظرية، هو ما قاده إلى الربط الوثيق بين العروبة والإسلام، على اعتبار أن الأخير يوطّد مواقع القومية ويمدّها بثبات أكيد.

وواقع الأمر، أن دروزة كان يكتب عن ميتافيزيقا القومية وهو يكتب عن القومية. ويظهر هذا في اتجاهين، أولهما الفصل بين القومية والتاريخ، وثانيهما الدمج الكامل بين العروبة والإسلام. قاده الاتجاه الأول إلى العثور على القومية العربية في زمن ما قبل ـ الإسلام، مساوياً بين مفهوم القومية، وهو مفهوم حديث، وبين فكرة القوم والأقوام، التي تردّ إلى أشياء كثيرة، دون أن تلتقي بمفهوم القومية. فالقومية مفهوم حديث، لا ككلمة فقط، بل كتعيين اجتماعي ـ تاريخي، ذلك أن وجود القومية لا ينفصل عن العلاقات المادية التي تنتج القومية، والتي تتضمن : الدولة المهيمنة القائدة، الحداثة الاجتماعية، المجتمع المدني، المواطنة... وهذا ما يحدّد القومية كظاهرة تاريخية حديثة، لا علاقة لها بفكرة *القوم»، وما يصدر عنها من أفكار العصبية ووحدة الجنس والدم.... ومع أن دروزة يربط القومية بـ *اللغة والمصلحة والوطن»، فإن محاكمته النظرية لا تستقيم تماماً. فالعنصران المحدّثان عن اللغة والمصلحة

لا يقدّمان للقومية، في تعريفها الموضوعي، الشيء الكثير، بسبب التباسهما وضعف وضوحهما. أمّا مفهوم الوطن، وفيه من الغموض ما يكفي، فلا يستوي دون مفهوم : المواطنة، الذي يحيل على الإنسان لا على المكان، وهو ما يستدعي، بالضرورة، مفهوم الدولة، الذي هو مفهوم حديث. فلا وطن دون مواطنة، ولا مواطنة دون دولة، تحدّد معنى الحقوق والواجبات، وتؤمّن شروط ممارستهما. وبهذا المعنى، فإن القومية، في معناها الحديث، أي الفعلي، تردّ إلى المواطن والمواطنة، لا إلى حيّز غائم يدعى بـ : الوطن.

يتجلّى النزوع الميتافيزيقي الثاني في الربط بين القومية العربية والإسلام، أي بين ظاهرة تاريخية، تخضع لتحوّلات التاريخ، وحقيقة إلهية، تتسم بالثبات. والسؤال المباشر الذي يطرح هنا، وانطلاقاً من اجتهاد دروزة هو التالي: ما ضرورة الربط بين القومية العربية والإسلام، إن كانت القومية هذه سابقة في وجودها على الإسلام؟ تأخذ الإجابة، ربما، شكلين غير متباعدين، يقول أولهما : يشكّل الإسلام، وهو معطى مقدّس، ضماناً لتثبيت القومية العربية وتوطيدها، علماً أن فكرة الضمان في ذاتها دينية. ويقول ثانيهما : تساوي ماهية القومية، وهي قديمة وثابتة، ماهية الدين، المتصفة بالقدم والثبات أيضاً. تنتهي الإجابة، في شكليها، إلى الميتافيزيقا، محيلة قدم الدين على «قدم التديّن»، وقدم القومية على «قدم العصبية». وهاتان الإجابتان تتوافقان مع تصور دروزة، الذي يحوّل القومية إلى ظاهرة طبيعية، بلغة معينة، وإلى ظاهرة عضوية، بلغة أخرى. كأن الإنسان لا يولد إلا وتلد معه «عصبية قومية»، هي الوجه الآخر لمولود قديم هو : «التديّن». وقد يقال : إن دروزة أنشأ نظريته في القومية معتمداً على استقصاء تاريخي وعلى دراسات متلاحقة أنجزها كمؤرخ حصيف ودؤوب. غير أن الحجة هذه تهتز مرتين: تهتز بسبب المسافة الزمنية الشاسعة التي عثر فيها المؤرخ على «القومية العربية»، وتهتز بسبب السياق التاريخي، الذي أملى على المؤرخ نظريته، وهو سياق يحتاج إلى التحريض واستنهاض الأرواح، تزامنت فيه سيطرة أوروبية واستعلاء تركي وفاعلية صهيونية طليقة.

تكوّن فكر محمد عزة دروزة في سياق ثقافي وطني مضيء ومتسامح، لا يعارض الإسلام بالعروبة، بل يدمجهما معاً في مشروع تحرري يتجاوزهما، مقولاته الحرية والاستقلال والنهضة. بل أن هذا السياق جعل فكرة الإصلاح قوّامة على غيرها من الأفكار، بما فيها المرتبطة بالإسلام والعروبة. وآية ذلك اجتهادات عبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبدة وشكيب أرسلان والزهراوي ورفيق العظم ورشيد رضا، قبل أن يرحل من الاجتهاد الديني إلى أرض أخرى. وفي هذا السياق، وكان دروزة فيه ومنه، صالح المؤرخ الفلسطيني بين العروبة والإسلام، على مبعدة شاسعة من سياق لاحق، سيرى فيه «الدين النفطي» في القومية العربية إلحاداً وكفراً، وفي عبد الناصر مارقاً، ويرى «أن دين المسلم هو وطنه»، وأن «أوطان المسلمين هي ديار الآخرة».

ومهما تكن حدود الموضوعية وآفاق الجموح عند دروزة، فإن هدف التنوير كان قائماً في

قراءته للعروبة والإسلام وفي التوحيد بينهما. يضع هذا الهدف نظرية دروزة عن القومية في إطار الايديولوجيا التبشيرية، بقدر ما يحددّه مثقفاً رسولياً بامتياز، يبشّر بالنور ويبحث عن وسائل عملية لمواجهة الظلام. يكتب في الجزء الأول من *مذكرات وتسجيلات» : *وقد كان للشباب المتنورين وخاصة الذين لهم صلة بالحركات وبالتشكيلات القومية أثراً إيجابياً في ذلك بما كانوا يبثّونه من الدعوة إلى الثورة... ص : ٢٧٦». ويكتب أيضاً : *إن سواد الشعب العربي لم يكن متحمساً بقوة تسمح بالقول إنه متجاوب مع الفكرة القومية ومستبشراً بالحركة العربية، وكل ما كان بالنسبة للسواد أن هذه الحركة التي كان يضطلع بها المتنوّرون القوميون وأن الدعوة التي كانوا يدعون إليها قبل إعلان الحرب (الأولى) بالحقوق والمطالب العربية وشرحها كانتا لافتتين للذهن ومنبهتين من السبات. ص : ٢٧٦ ـ ٢٧٧». أو *إن نفوذ الفكرة القومية وقوتها في المتنورين والسياسيين الشباب كان متفاوتاً»، وصولاً إلى حديثه عن *ضعف البنية القومية العربية»، وعن اتهام الداعين إلى القومية العربية، وهم قلّة متنورة كما يقول دروزة، بـ *الزندقة والإلحاد والاستغراب...».

تكشف صفحات طويلة من *مذكرات» دروزة، وموقعها الربع الأول من القرن العشرين، عن أفكار ثلاث أساسية : اندماج العروبة والإسلام والتنوير في إشكالية ايديولوجية عامة عنوانها : النهضة العربية. غربة مفهوم القومية العربية عن سواد الشعب وعن *طبقة الأعيان والوجهاء» وموظفي الدولة والمشايخ وأصحاب المناصب البارزة (ص : ٢٧٧)، اقتصار الدعوة القومية العربية على نخبة مثقفة قليلة العدد. يفسّر هذا الواقع كتب دروزة، الأدبية والتاريخية، ويحددّها بوظيفة تربوية ـ تحريضية. وإذا كان الربع الأول من القرن العشرين قد فرض على قلم دروزة نبرة تبشيرية، تخلق التاريخ وهي تستنهض أذهنة غافية، فإن النصف الثاني من القرن، وبعد ضياع فلسطين، أوصل المؤرخ إلى أرض : *الجماعة المتخيّلة»، باللغة الانثروبولوجية المتأخرة. وما نظريته في *القومية العربية» المنجزة إلا صورة لهذه *الجماعة» التي عليها، وقد وحّدها المتخيّل، أن تهبّ لتحرير فلسطين وأن تعيد الحق إلى نصابه. وبما أن *الجماعة العربية» ليست موحّدة بالفعل، فعلى *المتخيّل النظري» أن يبرهن عن وحدتها بـ *القوة»، أي إن كان على *المتخيّل النظري» أن يبرهن عن وجود القومية العربية بـ *القوة»، فذلك كي تبرهن بـ *الفعل» عن قدرتها على استرداد فلسطين العربية. إن السياق التاريخي، وعمره قرن من الآمال والإخفاق، أملى على دروزة *نظرية في القومية العربية» تتمازج فيها، وبشكل لا متكافئ، الكثير من الحقائق والكثير من الرغبات أيضاً.

٥ ـ مآل الرجل والسياق :

*التاريخ يعني بالأساس رصد تكوّن القيم» [٩]. ما يقول به عبد الله العروي ينطبق، بعد أكثر من اختزال، على محمد عزة دروزة. وبالإمكان، ربما، أن نقسم حياة المؤرخ الفلسطيني إلى قسمين متداخلين، كتب في أحدهما عن القيم وكافح من أجلها، ورصد في ثانيهما القيم، مكتفياً بـ *كفاح» محدود. ولا غرابة في هذا، ذلك أن دروزة بدأ حياته *الأدبية» مدافعاً عن القيم. تبدأ مسرحية *وفود النعمان على كسرى أنو شروان»، التي طبعت في بيروت سنة ١٩١١، بالكلمات التالية : *إليك أيتها الناشئة العربية : صورةً من صور آبائك الشم، وصفحة من صفحات حياتهم الغراء وضعتها أمامك، أولئك الأجداد الذين كانوا فوق البشر نفوساً،